الملة عند ابو نصر الفارابي

نورالدين علوش/ المغرب

مقدمة: لعله من ناقلة القول الحديث عن الوشائج الوثقى بين الفلسفة والدين عبر التاريخ والعصور، فذلك أصبح من البديهيات التي يمكن القول معها بأنه لا بوجود للفلسفة بدون دين، ولا وجود للدين بدون فلسفة.

وهذا القول لا ينطبق على الإسلام وحده، بل يسري على جميع الأديان، ولعل اهتمام الفارابي بالدين من خلال أعماله الفلسفية المختلفة خير دليل على اهتمام الفلاسفة المسلمين وانشغالهم بالدين ومعالجتهم لقضاياه المتنوعة[1]

فالفارابي حسب محسن مهدي ـ هو أول فيلسوف طور فلسفة للملة تعتمد في أساسها على التراث الفلسفي الأفلاطوني والأرسطي بشكل عام، وعلى الفلسفة الأفلاطونية بصورة خاصة.

لقد سبق للفارابي أن تناول الدين في كتبه المتعددة وخاصة في كتاب الحروف، لكنه أبى إلا أن يخصص كتابا بعينه لفحص هذه المسألة هو كتاب الملة، "وكتاب الملة" قد يكون لاحق التأليف لكتاب الحروف، بقرينة عدم ذكره في كتاب الحروف وذكر غيره من كتب الفارابي في المنطق[2].

الملة عند الفارابي:

الملة في كتاب الملة:

---

[1]- محمد ايت حمو، الدين والسياسة في فلسفة الفارابي، ص: 27.

[2]- أحمد علمي حمدام، الكلام كجنس دراسة لذاتيات الكلام من زوايا ومباحث متعددة منشورات ما بعد الحداثة، ط1، 2007، ص 10.

لقد خصص الفارابي كتابا للبحث في الدين، هو كتاب الملة الذي نرى أن غاية الفارابي الأولى أو القريبة في تأليفه وهي توضيح حقيقة الدين وصفات رئيسه الأول وخلفائه وعلاقته بعلمي الفقه والكلام وكذلك علاقته بالفلسفة[3].

ينطلق الفارابي في تفسيره لمحددات حدوث الملة من فرضية أساسية مضمونها أن بعد اكتمال العلوم النظرية والعملية تأتي مرحلة وضع النواميس، وهذا يحتاج إلى صناعة خاصة بذلك، وهي "صناعة وضع النواميس". والحاجة إلى وضع هذه الأخيرة هي التي أدت إلى حدوث الملة[4].

ويستعمل الفارابي كتاب المتناول حاليا بالدرس بتعريف الملة قائلا: "الملة هي آراء وأفعال مقدرة مقيدة بشرائط يرسمها للجمع رئيسهم الأول، يلتمس أن ينال باستعمالهم لها غرضا له فيهم أو بهم محددا، والجمع ربما كان عشيرة وربما كان مدينة أو صقعا، وربما كان أمة عظيمة، وربما كانت أمما كثيرة، والرئيس الأول إن كان فاضلا وكاتب رئاسته فاضلة في الحقيقة، فإنه إنما يلتمس بما يرسم من ذلك أن ينال هو وكل من تحت رئاسته السعادة القصوى التي هي في الحقيقة سعادة، وتكون تلك الملة فاضلة"[5].

---

[3]- عزمي طه سيد أحمد الدين والإيديولوجيا في الفكر السياسي للفارابي دار المسار الأردن، 2002، ص 15.

[4]- عبد الله الطني معجم الفلسفة الفارابية بحث لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة تحت إشراف الدكتور طه عبد الرحمان السنة الجامعية 2003-2002، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ص 180.

[5]- أبو نصر الفارابي، كتاب الملة، نصوص أخرى تحقيق محسن مهدي، دار المشرق، بيروت، ط2، 1991، ص 43.

إن هذا التعريف الواسع والمحايد[6] "حسب الباحث محسن مهدي" لا يبين أي رأي خاص في الله، والملائكة والنبوة والوحي والتواب والعقاب في الآخرة، أو في مجال الأخلاق، وهو يلتئم من أربعة عناصر تجيب على أربعة أسئلة، 1) ما هي الملة؟ إنها جملة آراء وأفعال مقيدة بشرائط: أي جانب نظري وجانب عملي، النظري هو مجموعة الآراء المتعلقة بالله وبالملائكة أي الإلهيات وكذلك الآراء الخاصة بتركيبة العالم ومنشئه أي الكوسمولوجيا، والآراء المتعلقة "بالإنسان وحصول النفس فيه"[7].

إضافة إلى تضمن الملة آراء خاصة بالعقل ومرتبته من العالم ومنزلته من الله، وكيف يكون من الروحانيين، و"النبوة ما هي والوحي كيف هو"[8].

وإذا كان ما سبق من آراء نظرية متعلقة بأشياء نظرية[9]، فإن الجانب الثاني من الآراء نظرية يتعلق بأشياء إرادية أي عملية تخص أفعال الأنبياء، والملوك والمدن والأمم[10]، إن كل هذه الآراء وإن كانت نظرية فإنها تهدف إلى العمل لأنها مجموعة من المثالات التي يجب أن تساعد الناس في مراسهم[11].

---

[6]- محسن مهدي، الفارابي وتأسيس الفلسفة الإسلامية السياسية، ترجمة وداد حاج حسن دار الفارابي، ط 2009، ص: 142.

[7]- كتاب الملة، ص: 45.

[8]- نفس المرجع، ص 45.

[9]- نفس المرجع، ص 44.

[10]- نفس المرجع، ص 45.

[11]- صالح مصباح مسألة الملة عند الفارابي، ضمن دراسات حول الفارابي جامعة صفاقس تونس، 1995، ص: 190.

"إن آراء الملة صفات تخيل إلى المدنيين جميع ما في المدينة من ملوك والرؤساء والخدم ومراتبهم وارتباط بعضهم لبعض وجميع ما يرسم لهم ليكون ما يوصف لهم من تلك مثالات يقتفونها في مراتبهم وأفعالهم"[12]

إن الطبيعة العملية للملة تتجلى بوضوح أكثر في الجانب العملي منها أي "الأفعال" وهي مجموعة الأقاويل التي ترد إلى العبادات تمجيدا وتعظيما لله والملائكة والأنبياء...[13] وكذلك معاملات أهل المدن[14].

2) من هو الفاعل الذي يحققه أنه الرئيس الأول، واضع الملة فالملة تفترض رجلا يأتي بشريعة وعقيدة، فيجتمع الناس حوله لا للاعتقاد فقط، وإنما ليقودهم إلى غرض معين، فالرئيس الأول هو الذي يؤسس المدينة الفاضلة. والملة حسب النص لا تكون فاضلة إلا إذا كان الرئيس فاضلا . ولا يكون الرئيس فاضلا إلا إذا كان نبيا فاضلا يوحي إليه بالحقائق[15].

3) لمن تقدر تلك الآراء والأفعال؟ أنها جماعة ما، أو جمهور من الناس، إذ لا يقدر الرئيس الأول للملة لنفسه أو لبعض الأتباع وحسب وإنما يقدرها لجماعة ذات حجم معين.

4) وما هو الغرض؟ في الرئاسة الفاضلة وهي الرئاسة المؤيدة بالوحي تقدر الآراء والأفعال في الدين بحيث" إذا استعملت في المدن أو الأمم، عمرت بها مساكنهم ونال بها أهلها الخيرات في هذه الدنيا والسعادة القصوى في الحياة الآخرة[16]، ويوضح الفارابي في السعادة الحقيقية وهي التي تطلب لذاتها ولا تطلب

---

[12]- كتاب الملة، ص 45.

[13]- نفس المرجع، ص 46

[14]- نفس المرجع، ص 46.

[15]- محمد ايت حمو، الدين والسياسة عند الفارابي دار التنوير، بيروت، ط1، 2011، ص: 31.

[16]- كتاب الملة، ص 54.

في وقت من الأوقات لينال بها غيرها وسائرا لأشياء الأخرى إنما تطلب لتنال هذه، فإذا نيلت كف الطلب"[17] هذه السعادة لا تتحقق إلا بإقامة المدينة الفاضلة.

أما في الرئاسة الجاهلية وهي رئاسة غير مؤدية بالوحي يكون هدف الدين وغايته تحقيق الخيرات الجاهلية والتي هي خيرات دنيوية محضة: إما للرئيس الأول من خلال استعمال أتباعه واستغلالهم لتحقيق هذه المصالح الدنيوية، وإما للأتباع والجمهور، وإما للرئيس والجمهور معا، فالغاية من الدين هنا مقصورة على الدنيا لا تتجاوزها[18].

الملة والدين والشريعة :

مثلت الملة والدين والشريعة تتساوى أضلاعه في الدلالة عنه الفارابي تارة وقد تتفاوت تارة أخرى، يقول الفارابي هذا الصدد: "والملة والدين يكادا يكونان اسمين مترادفين، وكذلك الشريعة والسنة، فإن هذين إنما يدلان ويقعان عند الأكثر من الأفعال المقدرة من جزأي الملة. وقد يمكن أن تسمى الآراء المقدرة أيضا شريعة، فيكون الشريعة والملة والدين أسماء مترادفة.

فإن الملة تلتئم من جزئين: من تحديد آراء تقدير أفعال، فالغرب من الآراء المحدودة في الملة ضربان: إما رأي عبر منه باسمه الخاص به الذي جرت العادة بأن يكون دالا على ذاته، وإما رأي عبر عنه باسم مثاله المحاكي له، فالآراء المقدرة التي في الملة الفاضلة إما حق وإما مثال حق"[19].

ثم هناك مسألة أخرى يجب الاهتمام بها: مسألة الترابط بين الملة والسنة، حيث أن الثنائي اللفظ الآخر يطلق على أفعال مقدرة، أي على الجزء الثاني من الجزئين اللذين منهما تلتئم الملة، وعلى الفرائض والأقوال والمعاملات، غير أن أحد اللفظين اللذين يلتئم منهما التنائي وهو الشريعة، يمكن أن يدل على الآراء المقدرة أو

---

[17]- نفس المرجع، ص: 52.

[18]- عزمي طه سيد احمد م س ص 35

[19]- كتاب الملة، ص 46

على الجزء الأول من الملة أيضا. وبالتالي فإن الشريعة والملة والدين ألفاظ مترادفة حقا، أو أن لم تكن كذلك فإن الفروقات فيما بينها ليست ذات بال، وقد وضع لفظ سنة جانبا لأنه بلا ريب لا يدل على آراء[20].

حسب حسن مهدي فإن هذا الاستعمال العام الفهم المشترك يعكس ويبدو أنه يفترض مسبقا التمييز بين آراء الملة وأفعال الملة وبين الملل التي منحاها الرأي وتلك التي منحاها الأفعال على حد سواء.

غير أن الأفعال وحدها كما الآراء وحدها لا تكفي لأن تلتئم الملة بها، وبصورة عامة، يتطابق عرض الفارابي مع الرؤية المشتركة للملة، غير أن هذه الأخيرة تميل إلى اعتبار الملة بالأحرى شريعة، أي أفعال مقدرة وآراء محددة ينبغي قبولها والتقييد بها[21].

الملة في كتاب "الحروف":

خصص أبو نصر الفارابي حيزا مهما للملة في كتابه الحروف، خاصة في الباب الثاني (131-161) ويدرسها في علاقتها بالفلسفة واللغة.

مما لا شك فيه أن كتاب الحروف هو تفسير الكتاب أرسطو طاليس فيما بعد الطبيعة (الحروف- مهدي 35) غير أننا نجد ضمن هذا التفسير "غرض أرسطو طاليس في كتاب ما بعد الطبيعة"، ضمن لغة جديدة وعصر جديد، بل وإضافة غرض جديد هو الملة.

يقدم أن الفارابي في الباب الثاني حسب الدكتور محمد عابد الجابري[22] نوعا من الفلسفة التاريخ حاول الفارابي أن يشرح فيها تطور الثقافة في المجتمعات من

---

[20]- محسن مهدي، الفارابي وتأسيس الفلسفة السياسية الإسلامية، ص: 155.

[21]- نفس المرجع، ص 156.

[22]- محمد عابد الجابري، نحن و التراث مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2006، ص. ص 118-.119

مرحلة التعبير المشخص بالإشارة والتصويت إلى أعلى مراحل التعبير المجرد، مرحلة الدين والفلسفة.

وقد لجأ في محاولته هذه إلى المقاسية بين تطور الفكر اليوناني وتطور الفكر الإسلامي، تارة يقرأ هذا بواسطة ذاك وتارة يقرأ آنذاك بواسطة هذا، غير انه يعرج تارة على الفكر الفارسي وطورا على الفكر الهندي، مبرزا تداخل هذه الثقافات وانتقال بعضها إلى ميدان الأخرى محاولا إثبات الأسبقية الزمنية للفلسفة على الدين إلى جانب، أسبقيتها المنطقية التي شرحها في كتبه أخرى وخاصة في كتاب الملة، كل ذلك بأسلوب تعميمي متقطع وبطريقة تجريدية جد ملتوية، فيها تردد وفيها غموض وتستر، ... يستعرض الفارابي تطورا لتعبير ابتداء من حدوث حروف الأمة وألفاظها، إلى أصل لغة الأمة، ووصولا إلى حدوث الصنائع العامة، الخطابة والشعر ورواية الأخبار وعلم اللسان وصناعة الكتابة إلى حدوث الصنائع القياسية، العلوم النظرية، ثم يتتبع تطور هذه من مرحلة الطرق الخطبية السوفسطائية إلى الطرق الجدلية، التي تأخذ في الاقتراب شيئا فشيئا من الطرق اليقينية إلى أن: "يصير الحال في الفلسفة ـ كما يقول إلى ما كانت عليه في زمن أفلاطو ثم يتداول ذلك إلى أن يستقر الآمر على ما استقر عليه أيام، أرسطو طاليس، فيتناهى النظر العلمي وتميز الطرق كلها، وتكمل الفلسفة النظرية والعلمية الكلية، ولا يبقى فيها موضع لفحص فتصير صناعة تتعلم وتعلم فقط، ويكون تعليمها تعليما خاصا و تعليما مشتركا.

فالتعليم الخاص يكون بالطرق البرهانية فقط، والمشترك الذي هو العلم فهو الطرق بالجدلية أو بالخطابية أو بالشعرية"، ثم ينتقل الفارابي عبر هذا التأويل الإديولوجي إلى هدفه الأساسي" فيقول: "ومن بعد هذه كلها يحتاج إلى وضع النواميس وتعليم الجمهور، ما قد استنبط وفرغ منه وصحح بالبراهين من الأمور النظرية وما استنبط بقوة التعقل من الأمور العملية، فإذا وضعت النواميس في

هذين الصنفين أو انضاف إليهما الطرق التي بها يقنع ويعلم ويؤدب الجمهور فقد حصلت الملة التي بها علم الجمهور وأدبوا وأخذوا بكل ما ينالون به السعادة".

إذن فالملة هدفها تعليم الجمهور بالإقناع أو التخييل أو بهما جميعا (الحروف 151) ما تنتجه الفلسفة برهانيا.

ولأن الملة تخيل للجمهور الأشياء، التي برهنت عليها الفلسفة، فلا يتردد الفارابي في إعلان أن الأولى تتقدم الثانية (الحروف 133) وذلك لأنها تابعة لها (الحروف 153) تبعية مزدوجة فهي تبعية زمنية،إذا فالملة إذا جعلت إنسانية تلت في الزمان الفلسفة، وكذلك تبعية في المرتبة، إذ أنه إذا كانت الملة مستندة إلى فلسفة قديمة مظنونة أو موهمة(الحروف 151)، كانت ملة فاسدة (الحروف 154) أما عندما تكون الفلسفة التي تؤسس الملة فلسفة يقينية فإن الملة بدورها تكون صحيحة[23].

يمكن القول إن معيار التمييز في كتاب الحروف بين الدين الفاضل والدين الفاسد هونوع الفلسفة التي يتبع لها الدين. فالدين الصحيح هو الذي يتبع فلسفة برهانية يقينية.

أما الدين الفاسد هو الذي يتبع فلسفة غير برهانية.

ولكن هناك مشكل يطرح بالقول بأن الملة جاءت بعد الفلسفة، لأن السؤال المطروح هنا هو إنه إذا كانت الملة قد جاءت بعد الفلسفة، ينبغي أن تكون أكثر تقدما منها فكيف يجعل الفارابي الملة إنسانية وهي ليست إنسانية، لأنها عبارة عن وحي او سنة ؟ والجواب هو أن علم الكلام والفقه يخضعان الملة لمقتضيات العقل،

وبفضلهما يتحول هذا النبع الذي هو الملة إلى أمر إنساني يمكن الخوض فيه[24]، فالفارابي يرى "أنه يمكن تأسيس الملة الإنسانية في أي وقت من مسار تطورها، ما دامت تتكون من المعتقدات والممارسات التي يفرضها المشرع

---

[23]- صالح مصباح، مسألة الملة عند الفارابي، ص: 199.

[24]- محمد آيت حمو الدين والسياسة عند الفارابي، ص 75.

الإنساني، ولكن كما لها سيعتمد على مدى تقدم الفكر الإنساني والخبرة الإنسانية، في ذلك الوقت.

فالملة الإنسانية عالقة أيضا في هذه الحركة الدائرية للتاريخ الإنساني، وهي تتشابه مع حركة النواتج الثقافية عبر حدود الأمم، وهي عرضة للانتحال من قبل مدعي تأسيس الملل الذين يبحثون عن الشهرة والمجد، لذلك تكون الملة الإنسانية الأفضل هي التي تلك الملة التي تتأسس في ذروة تطور الصناعات الفكرية والعملية"[25].ونحن نعتقد بأن الملة عندما تصبح إنسانية فهي عبارة عن فقه وعلم كلام[26].

II- الملة في تحصيل السعادة

يعالج الفيلسوف أبو نصر الفارابي مسألة الملة في كتاب تحصيل السعادة الملة باعتبارها محاكية للفلسفة وليست هي نفسها الفلسفة، حيث أن الفلسفة معرفة بالموجودات والأفعال عن طريق البرهان، الإقناعي، فإن هذه الموجودات "متى علمت بأن تخيلت بمثالاتها التي تحاكيها، وحصل التصديق بما خيل منها عن الطرق الإقناعية، كان المشتمل على تلك المعلومات يسميه القدماء ملة"[27].

كما أن اتفاق الفلسفة والملة لا ينحصر في الموضوع، بل تشتركان كذلك في المقصدان هما: "تعطيان الغاية القصوى التي لأجلها كون الإنسان، وهي السعادة القصوى"[28].

---

[25]- محسن مهدي، الفارابي وتأسيس الفلسفة السياسية الإسلامية، ص 107.

[26]- محمد آيت حمو، م س، ص 75.

[27]- أبو نصر الفارابي، تحصيل السعادة، ص 90.

[28]- ن م، ص 90.

ولكن السبل النظرية مختلفة إذ أن كل ما تعطيه الفلسفة من مبادئ وأسباب وغايات "معقولا أو متصورا" فان الملة تعطيه متخيلا وإذا كانت الأولى تتوسل "براهين يقينية"[29].

[29]- م ن، ص 88.